التصوف من إشكالية الفهم إلى تيه الممارسة

الأستاذ: العيـــد عـــلاَّوي
قسم اللغة العربية وآدابها
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي– الطارف

كتب الرئيس الأمريكي ولسون قبل وفاته بأسابيع مقالا ختمه بقوله:" إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية إلا إذا استردت روحانيتها"[1]

ملخص الدراسة:

– يعد التصوف أحد التيارات الفكرية التي جعلت سلوك الإنسان مناط الاهتمام، بغية العروج به إلى مدارج الكمال، والخروج به من دائرة المادية إلى الروحانية وتزكية النفس.

– فتعددت تعاريف العلماء له، فمنهم من قارب الصواب، ومنهم من حاد عن سنن الاستواء.

– تأتي هذه المقالة لإماطة اللثام عن نشأة علم التصوف، والكشف عن أهم أعلامه، وتحقيق القول في مفهومه وأنواعه؛ من تصوف مذموم مرفوض– التصوف الفلسفي–، وآخر محمود– التصوف الأخلاقي– وإبراز مجالات هذا النوع المحمود، لتتوج المقالة بجملة من النتائج تفصح عن دور التصوف في نهوض الواقع ومدى إسهامه في تهذيب السلوك الإنساني.

1– مقـــدمة:

جاء الإسلام لسعادة البشرية وهدايتها إلى طريق الهدى والاستقامة؛ إلى الطريق المستقيم، وإخراجها من الظلمات إلى النور، فدعا إلى التوازن والوسطية والاعتدال في جميع مجالات الحياة، بما في ذلك الجانب العقدي وهو جوهر الدين وأساسه، وكذا الجانب التعبدي الشعائري، والجانب المعاملاتي، فكان ذلك دينا واقعيا في إيجاده؛ إذ فرض على الإنسان ما يطيقه ولم يحمله مالا يطيق، وفتح له باب المثالية للترقي والسير إلى الله بالتقرب إليه بالنوافل؛ ومعنى هذا أن الدين الإسلامي اهتم بالإنسان من حيث هو روح

ومن حيث هو جسد، ووضع من التشريعات ما يكفل الصلاح لجسده وروحه، ولم يكن كالمادية التي أغرقت في الاهتمام بالجسد على حساب الروح، فأحاط الانهيار والبلاء بالأمم والمجتمعات، وعلى غرار هذا أحاط البلاء والفساد بالمذاهب والطرق التي وقفت عند العناية بالروح، فأغرقت في الرهبانية إغراقا مفرطا غير مدركة أن لها حقوقا وعليها واجبات. وقد تسرب شيء من هذا الفهم الخاطئ إلى أبناء الإسلام، وسنحاول من خلال هذه المداخلة بسط بعض الإشكالات وفي مقدماتها إشكالية التصوف من حيث المصطلح والممارسة.

2- التصوف الإشكالية في الاشتقاق والمفهوم:

أ- التصوف وإشكالية الاشتقاق:

حظي التصوف بوصفه منهاجا وطريقا باهتمام من العلماء قديما وحديثا، فكثرت تواليفهم حوله، حتى أن شيخ الإسلام ابن تيمية أفرد له جزءا خاصا في كتابه مجموع الفتاوى، وقد أجمع العلماء على أن كلمة" التصوف" مستحدثة، وذكر أنها أول ما أطلقت بالإفراد على ثلاثة من الزهاد الكوفيين؛ هم أبو موسى جـــابر بن حيان 280 هـــ وأبو هاشم الكوفي، وعبدك الصوفي[2]، وذهب هؤلاء إلى الجزم المطلق أن إطلاق الكلمة لم يتعد الثلاثة، وأن الكلمة لم تخرج من نطاق الكوفة؛ وأنها إفرادا وجمعا أطلقت في الكوفة، ومنها انتشرت في بقية البقاع.[3]، وخالف هذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي ذهب إلى أن الكلمة أول ما ظهرت في البصرة من بني دويرة بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد 150 هـــ، وهو واحد من أصحاب الحسن، وقد كان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار، ولهذا كان يقال: فقه كوفي وعبادة بصرية.[4]

مما تقدم نتلمس اختلافا بشأن المكان الذي أطلق فيه لفظ التصوف، إلا أن الاختلاف أشد وأحد في الأصل اللغوي لكلمة تصوف، فقد تضاربت الآراء قديما وحديثا، وذهب فيه العلماء والمؤلفون كل مذهب؛ بين داع للكف عن الشقاق والوقوف موقف التسليم عن إبداء الرأي، وبين مفند للاشتقاقات البعيدة عن مقتضى اللغة، فكان مما ذكروا: أن لا شيء يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، ومن ذلك قول القشيري النيسابوري: هذه التسمية غلبت على طائفة، فيقال رجل صوفي، وللجماعة صوفية ومن يتوصل إلى ذلك يقال له متصوف، وللجماعة المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث

العربية قياس، والقياس والأظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال: إنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالنسبة إلى الصفة لاتجئ على نحـــو الصوفـــي، ومن قال: إنه من الصفاء، فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال: إنه مشتق من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى، فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتق[معتبرا أن الناس لما تكلموا عن التصوف ما معناه، وفي الصوفي من هو؟ كل عبر بما وقع له][5]، ومن بين الذين تكلموا عن التصوف وعن معناه أبو نصر السراج الطوسي صاحب كتاب اللمع تـــ 378 هـــ، وهو واحد من كبار المتصوفة وقادتهم، فقد نظر إلى الكلمة نظرة الخبير بمعناها؛ الواعي بمدلولها المدرك لأصلها قائلا:[[إذا سأل سائل فقال: قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث، ونسبت الفقهاء إلى الفقه، فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال، ولا إلى علم، ولم تضف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين، والصبر إلى الصابرين؟ فيقال لهم: لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم...، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة، والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا، وهم مع الله في الانتقال من حال إلى حال مستجلبين للزيادة، فلما كانوا في الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسما دون اسم، فلأجل ذلك ما أضفت إليهم حالا دون حال، ولا أضفتهم إلى علم دون علم، لأني لو أضفت إليهم في كل وقت حال ما وجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال، وسميتهم بذلك، ولكان يلزم أن أسميهم في كل وقت باسم آخر، وكنت أضفت إليهم في وقت حالا دون حال على حساب ما يكون الأغلب عليهم، فلما لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام، وشعار الأولياء والأصفياء، وتكثر في ذلك الروايات والأخبار، فلما أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسما مجملا، عاما، مخبرا عن جميع العلوم والأعمال، والأخلاق الشريفة المحمودة، ألا ترى أن الله ذكر طائفة من خواص عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل:[[إذ قال الحواريون]]

المائدة 112، وكانوا يلبسون البياض، فنسبهم إلى نوع من العلوم والأحوال التي كانوا بها مترسمين؟ فكذلك الصوفية عندي،– والله أعلم– نسبوا إلى ظاهر اللبسة، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم الأخرى...[6]، والظاهر من هذا القول إن الطوسي يقر أن الصوفية سموا بهذا الاسم نسبة إلى لبس الصوف، وهو بذلك يخالف القشيري الذي أنكر ذلك بقوله: فأما قول من قال: إنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، فذلك وجه ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف[7]، ووافق شيخ الإسلام ابن تيمية القشيري حينما سئل عن لفظ الصوفية، فقال:[أما لفظ الصوفية فإن لم يكن مشهورا في القرون الثلاثة، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ، كالإمام أحمد، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد روي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري، وتنازعوا في المعنى الذي أضيف إليه الصوفي، فإنه من أسماء النسب؛ كالقرشي والمدني وأمثال ذلك. فقيل: إنه نسبة إلى أهل الصفة وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صوفي، وقيل: نسبة إلى الصف المقدم بين الله، وهو أيضا غلط؛ فإنه لو كان كذلك لقيل: صفي، وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: صفوي، وقيل: نسبة إلى صوفة بن بشر بن أد بن طابخة؛ قبيلة من العرب كانوا يجاورون مكة في الزمن القديم كان ينسب إليهم النساك، وهذا وإن كان موافقا للنسب من جهة اللفظ، فإنه ضعيف أيضا؛ لأن هؤلاء غير مشهورين في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى؛ ولأن غالب من تكلم باسم الصوفي لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود لها في الإسلام[8]، وواصل شيخ الإسلام قوله مفندا من ذهب إلى أن التصوف نسبة إلى لبس الصوف وهو دأب الصالحين والمرسلين بقوله: وقد روي أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف، فقال: إن قوما يتخيرون الصوف، يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي (ص) يلبس القطن وغيره...[9]، ومن بين الذين دعو إلى الكف عن الشقاق والتسليم عن إبداء الرأي الشيخ حسن رضوان صاحب كتاب روض القلوب المستطاب، وذلك في نظمه القائل فيه:[10]

وقد جرى من حيث الاشتقاق في لفظـــــــة التصوف الشقاق
وكــل ذي قولة لـــه توجيه لقوله فـــي نفســـــه وجيـــه

ولكـــن القياس والقواعـــــد في جملـــة الأقوال لا تساعد
والبعض منهم قد يقوي قوله بالأخذ من صوف بلبسهم له
فقولهم هذا وإن يكن وجـــد له قياس في كلامهـــم عهـــد
لكن أهل الحق لم يخـــتصوا بلبســـــه ولا عليـــه نصوا
فالأحسن التسليم في أقوالهم لهم وفي ماكان من أحوالهم
فإنهم أجل من أن تفتقـــــر أقوالهم إلى قياس مشتهـــر
أو اشتقاق إذ لهم قانـــــون ساروا به وسرهم مكنون
فليس إلا الكـــف والتسليـــم وفوق كل عالـــم عليـــم

وما يخلص إليه الواحد من هذا الجدل والشقاق بشأن الاشتقاق أن هذه الكلمة – التصوف– لا يشهد لها اشتقاق من جهة العربية ولا قياس، والظاهر أنها لقب.

3- المفهوم الاصطلاحي للتصوف:

ذهب العلامة ابن خلدون وغيره كثير إلى أن التصوف بوصفه علما من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من بعدهم؛ طريق الحق والهداية وأصلها العكوف عن العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه...[11]، وإذا كان علم التصوف من العلوم الحادثة، فاللافت للانتباه أن الغزالي أبا حامد المعروف بطول الباع في هذا العلم تجنب استعمال لفظ التصوف في كتابه إحياء علوم الدين، فلم يذكره إلا عرضا كما أنه لم يستعمل من المصطلحات الصوفية إلا الشائع منها؛ بل كثيرا ما كان يضع في مقابلها مصطلحات من عنده، كما تجنب ذكر المتصوفة بهذا الاسم واستبدله بأسماء عامة نحو الطالبين، الصديقين ألخ[12]، وقد عرف أبو محمد الجريري التصوف لما سئل عنه بأنه: الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني[13]، ولما سئل عنه الجنيد عرفه بقوله: هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به، وعرفه أيضا بأنه ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع[14]؛ أي هو أن يبتعد الإنسان عن هواه ويتوجه إلى مولاه ذاكرا له ومحبا إياه سامعا قوله ومتبعا أحسنه، ومتبعا كتابه وسنة نبيه ميقنا أن الخير كل الخير في الإتباع والشر كل الشر في الابتداع، وعرفه محمد بن علي القصاب قائلا: التصوف أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام[15]، وسئل رويم عنه فقال: التصوف هو

استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد[16]، وقال معرف الكرخي: التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق[17]، ولم يبتعد المزين عن هذه التعاريف، فأوجز التصوف في قوله: هو الانقياد للحق[18]؛ أي الانقياد لله، وقريب من هذا التعريف تعريف الأستاذ أبو سهل الصعلوكي؛ إذ لخصه في قوله: هو الإعراض عن الاعتراض[19]؛ أي الابتعاد عن اعتراض أوامر الله وعدم الأخذ بها، وعرفه السيوطي بأنه: تجريد القلب لله تعالى واحتقاره ما سواه[20]، وجانبه تعريف الشيخ زروق المغربي حيث عرفه بقوله: هو صدق التوجه إلى الله بما يرضاه من حيث يرضاه[21].

وبعد هذه الإلماحة التي سردنا فيها هذا الكم الهائل من تعاريف التصوف قديمها وحديثها، وقد يعيب عائب عنا هذا، ولكن الغاية المتوخاة من وراء ذلك تبين أن مفهوم هذا الكلمة من حيث الاصطلاح واضح؛ إذ جملة هذه التعاريف تقر أن التصوف هو الخلق الكريم، وبعبارة أدق؛ تقوى الله وهذا ما حدده ووصل إليه العلامة ابن القيم الجوزية في كتابه مدارج السالكين؛ حيث جمع كل ماضمته التعاريف السابقة في قوله: واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم: أن التصوف هو الخلق، وجميع الكلام فيه يدور على قطب واحد. هو بذل المعروف وكف الأذى. قال ومن الناس من يجعلها ثلاثة: كف الأذى واحتمال الأذى وإيجاد الراحة، ومنهم من يجعلها اثنين كما قال الشيخ: بذل المعروف وكف الأذى، ومنهم من يردها إلى واحد وهو بذل المعروف، والكل صحيح[22]، ولم يقف عند هذا الحد؛ بل ذكر الأشياء التي يدرك بها كف الأذى، واحتمال الأذى، وإيجاد الراحة، فقال:[وإنما يدرك إمكان ذلك في ثلاثة أشياء: في العلم، والجود، والصبر]، فالعلم يرشده إلى مواقع بذل المعروف والفرق بينه وبين المنكر وترتيبه في مواقعه، فلا يضع الغضب موقع الحلم، والجود: يبعثه على المسامحة بحقوق نفسه(...)، فالجود هو قائد جيوش الخير، والصبر يحفظ عليه استدامة ذلك، ويحمله على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى(...)، وهو أكبر العون على نيل كل مطلوب من خير الدنيا والآخرة قال تعالى:" واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"[البقرة: 45][23]. فهذه الثلاثة أشياء بها يدرك التصوف والمتأمل لقول ابن القيم البديع الدقيق يجده يضع معادلة تبعد التصوف عن الترهات والخزعبلات، فالمعادلة التي وضعها هي:

علم+ جود+ صبر= تصوف.

وبهذا فالتصوف كما يرى حاجي خليفة علم يعرف به كيف ترقى أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعادتهم والأمور العارضة لهم في درجاتهم بقدر الطاقة البشرية[24]، وبعبارة أبسط هو العلم الذي يبحث في الجانب الأخلاقي والعاطفي من الثقافة الإسلامية[25].

وجملة الأمر: أن الغرض من التصوف تلبية الخواء الروحي والنفسي الذي يعيشه الغربي في حياته الفكرية وحضارته المادية، والواقع أن التصوف يهدف إلى تهذيب النفس وترقيق القلب وتنمية المراقبة الذاتية لله تعالى والمحاسبة الداخلية للسلوك، ليبقى المسلم ملتزما بأحكام الشرع ومنصرفا في أعماله وتصرفاته إلى مرضات الله تعالى والتزام الجادة القويمة في الشرع وإخلاص النية والقصد في الأعمال والبعد عن الرياء والمعاصي وارتكاب المناهي[26]؛ أي هو السير إلى الله في الطريق الذي حدده لمرضاته، ومعنى هذا الانتقال من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة، ومن عقل غير شرعي إلى عقل شرعي، ومن قلب كافر منافق أو فاسق أو مريض أو قاس إلى قلب مطمئن سليم، ومن روح شاردة عن باب الله غير متذكرة لعبوديتها وغير متحققة بهذه العبودية إلى روح عارفة بالله قائمة بحقوق العبودية له، ومن جسد غير منضبط بضوابط الشرع إلى جسم منضبط شريعة الله عز وجل، وبالجملة من ذات أقل كمالا إلى ذات أكثر كمالا في صلاحها، وفي اقتدائها برسول الله[ص] قولا وفعلا وحالا[27].

4- نشأة التصوف وتطوره:

سبقت الإشارة إلى الشقاق والاختلاف الدائر بشأن اشتقاق لفظة التصوف، وسلف الذكر أن الإمام أبا حامد الغزالي تحاشى استعمال لفظة التصوف في كتابه إحياء علوم الدين، وتجدر الإشارة في هذا المقام أن الدارسين ذهبوا إلى أن التصوف الإسلامي أثرت فيه– إلى حد ما– عوامل أجنبية مسيحية أو هندية أو فارسية أو يونانية إلى جوار العوامل الإسلامية أيضا...[28]، وهذا ما يدفعنا للتحقيق في نشأة التصوف وتطوره، وبهذا الشأن ذهب أحد الباحثين إلى أن التصوف يختلف عن بقية العلوم في نشأته وتطوره، وذالك أنه لم يعرف نهائيا بهذا الاسم وبهذا العلم في القرن الأول؛ بل عرف باسم الزهد والعبادة في القرن الثاني والثالث الهجري، وأخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث، وظهر فيه التطرف والإفراط بعد ذلك ودخل حيز الفلسفة ثم بدأ يتراجع ويقترن بالأخلاق والتربية في عصرنا الحاضر[29]، ولتفصيل تطور هذا العلم إليك هذه النقاط الموجزة:[30]

1- لم يعرف علم التصوف في العهد النبوي، ولا في العهد الراشدي، ولا في العصر الأموي ولا في مطلع الخلافة العباسية.

2- بدأت معالمه في النصف الثاني الهجري، وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة[150 هـ].

3- كان الزهد البذرة الأولى للتصوف، وظهر الزهد منذ مطلع القرن الثاني الهجري، وصنف فيه كبار العلماء، وعد المتصوفة هذه الكتب أصولا ومنطلقات لهم.

4- يعد الحسن البصري[110 هـ] أهم رواد المتصوفة كما تعتبر كتبه من أوائل المصنفات التي تتضمن عبارات كثيرة وصيغا متعددة تحث على الزهد.

5- في هذه الفترة ظهر كبار الزهاد منهم محمد بن سرين[110 هـ]، وأبو حازم سلمه بن دينار المخزومي[140 هـ] وسابق بن عبد الله البربري، وعبد الله بن المبارك[181 هـ] والمعافى بن عمران[185 هـ] والفضيل بن عياض[187 هـ]، ومعروف الكرخي[200 هـ]، وبشر بن الحارث الحافي[227 هـ] والحارث بن أسد المحاسبي[249 هـ]، وأبو زيد البسطامي[261 هـ]. وأبو بكر الوراق[280 هـ]، وأبو القاسم الجنيد[298 هـ] وغيرهم.

6- وفي القرن الثالث الهجري والقرن الرابع تزاوجت العلوم الإسلامية بالثقافات الأجنبية (...)، وتأثر بعض الناس بالفلسفات المتعددة والأفكار الدينية الأخرى وخاصة تعاليم الإشراقين، وتسربت كثير من الاصطلاحات كتب حكمة الإشراق إلى الزهاد، ودخلت كتب الزهد والتصوف، وصدرت عن لسان عدد منهم كالحلاج...

5 – مراحل التصوف:

للتصوف مرحلتان أساسيتان متميزتان هما: مرحلة ما قبل التدوين ومرحلة التدوين[31].

أ- مرحلة ما قبل التدوين: وفي هذه المرحلة كان رجال التصوف وإن لم يعرف بهذا الاسم آنذاك، يعنون بالجانب العملي من العبادة ويتلقون أحكام التصوف ومبادئه وتعريفاته من صدور الرجال وسلوكهم اليومي لا من الكتب.

ب- مرحلة التدوين: وهي المرحلة التي شغل فيها الصوفية بإلقاء الضوء كتابة على سلوك السابقين وتوجيه الأنظار إلى مفهوماتهم فيما أشكل على الناس من ألفاظ كانت تدور بينهم، مثل: المقام- الحال- البسط... الخ.

6– أنواع التصوف:

من ينعم النظر في نشأة التصوف وتطوره يدرك أنواع التصوف، فيجعله نوعان: تصوف فلسفي وتصوف أخلاقي تربوي[32].

أ– التصوف الفلسفي: وهذا النوع مرفوض من أساسه، وإذا درس فإنما يدرس للرد عليه، وتبين فساده ومنافاته للإسلام، ويراد بالتصوف الفلسفي القائم على فكرة[[الحلول]] أو[[وحدة الوجود]].

ب– التصوف الأخلاقي التربوي: وهذا هو التصوف الحق الذي قال فيه ابن القيم في المدارج– كما سبق الذكر[اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق]، وعبر عنه الكتاني بقوله:[التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف].

7 – التصوف في الواقع والممارسة:

يعد التصوف من أكثر العلوم جدلا بين المسلمين، فمنهم من ذهب إلى أن التصوف جوهر الإسلام وذروة الكمال في الإيمان والسلوك والتربية والتهذيب ويحقق الصلة بين الخالق والمخلوق وبين العبد وربه(...)، بينما رأى آخرون أن التصوف دخيل على الإسلام والمسلمين، وأنه من البدع الخطيرة التي تسربت إلى المجتمع لتفت عضده، وتشل حركته، وتشوه تعاليمه، وتجمد نشاطه[33]، فالتصوف عندهم هو رأس البلاء وسبب الفساد[34].

لكن المتفحص للتراث العربي قديمه وحديثه يجد أن التصوف يحظى بمكانة وحظوة في الثقافة الإسلامية. ولهذا دلائل كثيرة، وفي مقدمة هذه الدلائل أن شيخ الإسلام الذي وصفه بعض الناس بالتشدد وهو غير ذلك، وإنما ذلك لضعفهم وقصر باعهم في فهم نصوصه ومؤلفاته، فقد أفراد شيخ الإسلام رحمه الله جزءا كاملا من مجموعة فتاويه– الجزء الحادي عشر– للتصوف، وحديثا كتب الشيخ سعيد حوى سلسلة التربية والسلوك متألفة من ثلاثة كتب(تربيتنا الروحية/ المستخلص في تزكية النفوس/ مذكرات في منازل الصديقين والربانين)، وكان من بين الأسباب التي دعته إلى كتابة هذه السلسة كما يقول هو[35]:

1– حاجة الحركة الإسلامية المعاصرة، متمثلة في علماء الإسلام ودعاته إلى نظرية واضحة عن التصوف، وعن السير الروحي بآن واحد.

2- ندرة الكتاب الصوفي المحرر على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة ومذاهبهم الفقهية.

3- إن كثيرين ممن كتبوا في هذا العلم جعلوه علم الخاصة مع أنه العلم الذي يطالب به كل إنسان، لارتباطه بقضايا يطالب بها كل إنسان كصحة القلب، وزكاة النفس...

4- أن هذا العلم في مسيرته التاريخية اختلط فيه أكثر من أي علم آخر أمور جعلته كالألغاز، وجعلته أحيانا وكأنه شيء آخر غير العلم وغير النصوص، وجعلته أحيانا مستقلا عن علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه؛ بل جعلته أحيانا إلهاميا له قوة الوحي في التشريع أو التقرير، وكل ذلك عجيب غريب في علم يجب أن يكون كبقية العلوم الإسلامية محررا منقحا.

5- أن أكثر المشتغلين بهذا العلم تصوراتهم الإسلامية قاصرة ومفاهيمهم ضيقة ويعيشون بعيدا عن عصرهم وعن بديهيات في الإسلام لاينبغي أن تغيب عن مسلم معاصر.

لكن في الوقت نفسه نشير إلى أن التصوف شابته بعض الانحرافات قديما وحديثا، فصار التصوف الحق شيء، والواقع والممارسة شيء آخر، فمن الانحرافات الفكرية والسلوكية قديما فكرة الفناء؛ وفكرة الفناء هي أبعد ما يكون من أخلاق الحياة كما قررها القرآن بآياته، والنبي بسلوكه وحديثه، والصحابة بممارساتهم المختلفة التعبدية منها والدنيوية، وإلى جانب هذا ففكرة الفناء لا تستقيم قط مع عقيدة التوحيد[36].

أما في الوقت الحالي فكثيرا ما تبتعد ممارسة التصوف عن التصوف الحق، إذ بات الناس يفهمون أن التصوف عبارة عن شطحات وتمائم وتمسح بأضرحة وحمل سبح، وإقامة وعدات وولائم، وبعضهم فهم أن التصوف اعتزال الناس وارتداء الثياب الرثة الوسخة القذرة، والإسلام والتصوف براء من هذه السلوكات، والحقيقة أن التصوف كما ذكرنا سابقا هو السير إلى الله بما يرضاه،" والحقيقة أن التصوف المغالي لا يقبل بحال من الأحوال، وأن المبادئ الغريبة عن الدين يجب تركها والتخلي عنها(...)، أما تربية الروح، وتهذيب النفس، ومراقبة الله وعدم التعلق بالدنيا، فهي من الإسلام سواء سميت عبادة أم زهدا، أم ورعا، أم تصوفا"[37].

8- فوائد التصوف:

من العدل والإنصاف تبيين أن التراث الصوفي على ما فيه من مآخذ، فيه ما فيه

من الفوائد التي لا تنكر ومنها:[38].

1- أنه يجمع بين كثير من أقوال الصالحين وحكم الزهاد والعباد وأهل التقوى والبصيرة.

2- أن فيه لفتات روحية مشرقة في فهم الآيات والأحاديث والتعليق عليهالا توجد عند غيرهم.

3- أن الصوفية- حين عنى الفقهاء بإحكام الظاهر المحس، والمتكلمون بالجانب العقلي الجاف- عنوهم بإحكام الباطن، ودراسة آفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها، وكيفية وقايتها وعلاجها، ولهم في ذلك من الممارسات والتجارب والمعارف ما ليس لطائفة غيرهم.

4- أن في أقوالهم حرارة وحيوية يلمسها قارئها، ولعل ذلك نتيجة المجاهدة النفسية والرياضة الروحية التي يعانونها، وليست النائحة كالثكلى.

5- أن الصوفية الأوائل وضعوا أسس التصوف ومهدوا طريقه، ورفضوا كل محاولة لإخراجه عن الشرع، وأبوا إلا تقييده بالقرآن والسنة.

9- مجالات التصوف:

لعلم التصوف مباحث رئيسة؛ إذ يبحث في الروح والقلب والعقل والنفس وإليك المخطط الآتي الذي يوجز مجالات التصوف الأصيلة:[39]

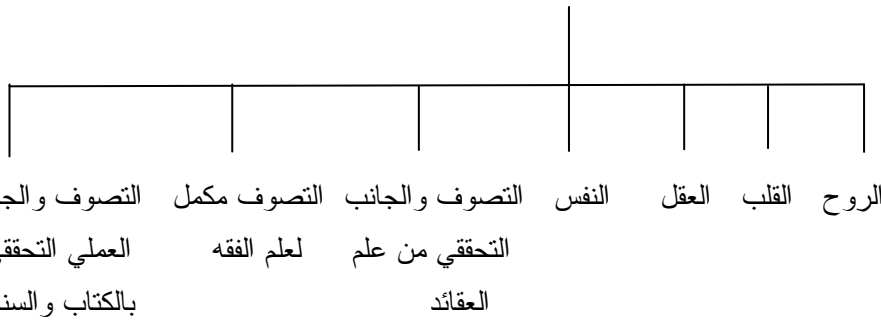

1- الروح في علم التصوف: الروح في أصل الخلقة عارفة بالله مقرة بالعبودية معترفة أنه ربها، ولكنها بمخالطة الجسد تطرأ عليها الطوارئ، فتفقد من معرفتها وعبوديتها.

2- القلب في علم التصوف: القلوب تعمى وتقسو وتمرض ويصيبها الختم ويصيبها الران، وللقلب وضعه الصحي الذي يكون به سليما، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله.

3- العقل في علم التصوف: ذهب الشيخ سعيد حوى في كتابه تربيتنا الروحية أن الناس قسمان: قسم فقهوا عن الله، وعقلوا خطابه فآمنوا به والتزموا به، فهؤلاء هم العقلاء حقا، وفريق لم يفقه عن الله ولم يلتزم، فهؤلاء لم يحصلوا العقل الشرعي.

4- النفس في علم التصوف: نقطة البداية في الصحة النفسية أو المرض النفسي عدم الرضى عن النفس قال ابن عطاء الله في الحكم:(أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضى عن النفس وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه...)، وقال الشيخ زروق:(وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة: الرضا عن النفس وخوف الخلق وهم الرزق...)

5- التصوف والجانب التحققي من علم العقائد: علم العقائد هو الذي يقيد التصوف، وعلم التصوف هو المكمل له من حيث إنه الجانب التحققي فيه، فإن حدث وأن ناقضه أو أوجد عقائد جديدة تخالف الكتاب والسنة أو تخالف أهل السنة والجماعة كما ورثت عن السلف فهذا هو الانحراف والزيغ والابتداع الخبيث.

6- التصوف كمكمل لعلم الفقه: نوجز معنى هذا في قول الفقهاء قديما:(من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق).

7- الجانب العملي التحققي بالكتاب والسنة: فالعلماء العاملون، والصوفية المحققون هم الذين اجتمع لهم الفقه والتحقق بآن واحد(...)، فالفقه الصحيح للنصوص، والتحقق الصحيح بها يمثل الأخذ الكامل بالكتاب والسنة(...)، ولا يأتي الخلل إلا من فهم خاطئ أو قاصر أو تحقق قاصر أو ناقص(...)، والطامة الكبرى عندما يجتمع فهم خاطئ وتحقق خاطئ، وبهذا فالمجال الصحيح للتصوف الصحيح هو التحقق الصحيح بالنصوص على ضوء الفهم الصحيح.

10- نتائج:

1- التصوف علم شريف؛ إذ هو الخلق، وهو من العلوم الحادثة في الإسلام.

2- تعددت أسماء التصوف فهناك من يسميه عبادة أو زهدا أو ورعا...، وقولنا في هذا المقام قول المناطقة: إذا عرف المفهوم فلا مشاحة في الاصطلاح.

3- التصوف لا أصل له في الاشتقاق، والصواب أو مقاربه أنه لقب.

4- علماء الإسلام وأئمة الهدى لم ينكروا التصوف، ولكن أنكروا الانحراف والزيغ الذي تسرب إلى هذا العلم، وإفراد شيخ الإسلام ابن تيمية جزءا كاملا للتصوف، وكذا مؤلفات تلميذه ابن القيم دلائل على ذلك.

5- الفقه شرط ضروري للمتصوف وللإنسان الذي يرغب في الإطلاع على كتب التصوف.

6- الرجوع إلى كتب التصوف التي ينصح بها أهل العلم والابتعاد عن الكتب التي شابها الانحراف والزيغ والتجاوز والابتداع.

7- تحرير التصوف من دخنه لتكون لدى المسلم مناعة ضد الوقوع في أسر جاهل أو جهل من أجل الوصول إلى تربية روحية رفيعة وواقعية.

8- يجب أن ينتقى من التصوف ما يخدم العقيدة الإسلامية والأخلاق الإسلامية، ويترك ما فيه شائبة أو ريبة، وينتفع في ذلك بمن نقد الصوفية مثل ابن الجوزي صاحب كتاب تلبيس إبليس وغيره.

11- خاتمة:

إن العالم الآن في مسيس الحاجة إلى قيم الإسلام السمحة وإلى علم التصوف الذي يسير بالإنسان سيرا روحيا وسلوكيا وخلقيا وتربويا، وقد أعلنت الحضارة الغربية عن إفلاسها روحيا بسبب طغيان المادة، وهذا ليس تجني عليها، فقد أقر ألكسيس كاريل بذلك في كتابه(الإنسان ذلك المجهول)؛ إذ ضمنه شهادة ضد الحضارة المادية، ففي فصل حاجتنا الروحية قال:(ونستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن التقدم المادي الذي حققناه وعن روائع الإنتاج الاجتماعي وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتلفيزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا... ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي البعض فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية...)[40].

الهوامش والإحالات:

1- المستقبل لهذا الدين، سيد قطب، دار مداني، د ط، د ت، ص: 74.

2- ينظر: في الزهد والتصوف حسن الشيخ الفاتح الشيخ قريب الله، دار الجيل، بيروت، ط1، ص: 43.

3- نفسه، ص: 45.

4- ينظر مجموعة الفتاوى، تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني، تخريج الأحاديث، عامر الجزار، أنور الباز، ج11، التصوف والقرآن كلام الله، دار الجيل، ط 1، 1997، ص: 07.

5- ينظر: الرسالة القشيرية في علم التصوف، ابو القاسم عبد الكريم بن هوازم القشيري النيسابورين، تحقيق ودراسة هاني الحاج، المكتبة التوفقية، د ط، د ت، ص: 85.

6- في الزهد والتصوف، ص 47- 48.

7- ينظر: الرسالة القشرية، ص: 385.

8- مجموعة الفتاوى، ص: 07.

9- نفسه، ص: 07.

10- في الزهد والتصوف، ص: 50- 51.

11- ينظر: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، عبد الرحمان بن خلدون منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج 1، ط 1، 1992، ص: 514.

12- ينظر: العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية- نقد العقل العربي(04)، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2001، ص: 586.

13- ينظر: الرسالة القشيرية في علم التصوف، ص: 385.

14- ينظر المصدر نفسه، ص: 386.

15- نفسه، ص: 386.

16- نفسه، ص: 386.

17- نفسه، ص: 386.

18- نفسه، ص: 387.

19- نفسه، ص: 388.

20- ينظر: تعريف عام بالعلوم الشرعية، محمد الزحيلي، دار الكوثر للنشر والتوزيع، الجزائر طبعة خاصة، الجزائر، د ط، د ت، ص: 189.

21- الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، فؤاد صالح السيد، المكتبة الوطنية للكتاب، د ط، د ت، ص: 114.

22- ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، إبن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط1، 2004، ص: 590.

23- نفسه، ص: 590.

24- ينظر: تعريف عام بالعلوم الشرعية، ص: 189.

25- ثقافة الداعية، يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 13، 2004، ص: 81.

26- ينظر: تعريف عام بالعلوم الشرعية، ص: 191.

27- ينظر: تربيتنا الروحية، سعيد حوى، التصوف على ضوء الكتاب والسنة، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط 7، 2004، ص: 62.

28- ينظر: ثقافة الداعية، ص: 81.

29- ينظر: تعريف عام بالعلوم الشرعية، ص: 192.

30- نفسه، ص: 192- 196.

31- ينظر: في الزهد والتصوف، ص: 55 وما بعدها.

32- ينظر: ثقافة الداعية، ص: 82.

33- ينظر: تعريف عام بالعلوم الشرعية، ص:198- 199.

34- تربيتنا الروحية، ص: 07.

35- نفسه، ص:05- 06.

36- ينظر: العقل الأخلاقي العربي، ص:428- 429.

37- تعريف عام بالعلوم الشرعية، ص: 200.

38- ثقافة الداعية، ص: 82- 83.

39- ينظر: تربيتنا الروحية، ص: 43- 60.

40- المستقبل لهذا الدين، ص: 71.